وكان بين ماأخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه . ثم قال الله له : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤمَرْ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر ٩٤/١٥] . وقال له : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ، واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ ﴾ [الشعراء ٢١٤ و٢١٥] .

وحينئذ بدأ رسول الله ﷺ بتنفيذ أمر ربه . فاستجاب لقوله تعالى : ﴿ فاصْدَعْ بِما تُؤْمَرْ وأعرِضْ عنِ الْمُشْرِكينَ ﴾ بأن صعد على الصفا فجعل ينادي : « يا بني فهر ، يا بني عدي ، حتى اجتمعوا ، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر : ماهو ؟ فقال النبي ﷺ : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ماجربنا عليك كذباً . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم .. ألهذا جمعتنا ؟ » . فنزل قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يدا أبي لهبٍ وَتَب ﴾[٤] [المسد ١/١١١] .

ثم نزل الرسول فاستجاب لقوله تعالى : ﴿ وأَنْذِرْ عَشيرتَكَ الأَقْرَبينَ ﴾ بأن جمع من حوله جميع ذويه وأهل قرابته وعشيرته ، فقال : « يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مرة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار : يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لاأملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلّها ببلاها »[٥] .

(٤) متفق عليه .

(٥) متفق عليه واللفظ لمسلم ، وقوله : سأبلّها ببلاها أي سأصلها بصلتها .

وكان رد الفعل من قريش أمام جهره بالدعوة ، أن أدبروا عنه وتنكروا لدعوته معتذرين بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا الدين الذي ورثوه عن آبائهم وأصبح من تقاليد حياتهم . وحينئذ نبههم الرسول ﷺ إلى ضرورة تحرير أفكارهم وعقولهم من عبودية الاتِّباع والتقليد ، واستعمال العقل والمنطق ، وأوضح لهم أن آلهتهم التي يعكفون على عبادتها لا تفيدهم أو تضرهم شيئاً ، وأن توارث آبائهم وأجدادهم لعبادتها ليس عذراً في اتباعهم بدون دافع إلا دافع التقليد ، كما قال عز وجل في حقهم : ﴿ وإذا قيلَ لَهُمْ تعالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرّسولِ ، قالوا حَسبُنا ما وَجَدْنا علَيهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يعلمونَ شيئاً ولا يهتدونَ ﴾ !؟ [المائدة ١٠٤/٥] .

فلما عاب آلهتهم ، وسفه أحلامهم ، وجرّ اعتذارهم عن تمسكهم بعبادة الأصنام أنها تقاليد آبائهم وأجدادهم ، إلى وصف آبائهم بعدم العقل ، أعظموا الأمر ، وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعدوانه ، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وإلاّ عمه أبا طالب الذي حدب عليه ، ومنعه ، وقام دونه .

العبر والعظات :

في هذا المقطع من سيرته عليه الصلاة والسلام دلالات ثلاث نجملها فيما يلي :

أولاً ـ أن رسول الله ﷺ ، حينما صدع بالدعوة إلى الإسلام في قريش وعامة العرب ، فاجأهم بما لم يكونوا يتوقعونه أو يألفونه . تجد ذلك واضحاً في ردّ أبي لهب عليه ، ثم في اتفاق معظم المشركين من زعماء قريش على معاداته ومقاومته .

وفي ذلك الردُّ القاطع على من يحاولون تصوير هذا الدين بشرعته وأحكامه ، ثمرة من ثمار القومية ويدعون أن محمداً عليه الصلاة والسلام إنما كان يمثل بدعوته التي دعا إليها ، آمال العرب ومطامحهم في ذلك الحين .

وليس الباحث بحاجة إلى أن يتعب نفسه بأي ردّ أو مناقشة لهذه الدعوى المضحكة عندما يطلع على سيرة النبي ﷺ . فالذين يروجون لها بين الناس هم أول من يعلم سخفها وبطلانها . ولكنها على كل حال دعوى لا بد منها في نظرهم من أجل إزاحة الدين وسلطانه عن سبيل المبادئ والأفكار الأخرى . فليس المهم أن تكون الدعوى صحيحة حتى يمكن الترويج لها ، ولكن المهم أن تكون مصلحتهم وأغراضهم تتطلب ترويج ذلك وادعاءه ، ولعلك لم تنس ماذكرناه مفصلاً في المقدمة الخامسة بصدد هذا الموضوع .

ثانياً ـ كان من الممكن أن لا يأمر الله رسوله بإنذار عشيرته وذوي قرباه خاصة ، اكتفاء بعموم أمره الآخر وهو قوله : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ إذ يدخل أفراد عشيرته وذوو قرباه في عموم الذين سيصدع أمامهم بالدعوة والإنذار ، فما الحكمة من خصوصية الأمر بإنذار العشيرة ؟

والجواب : أن في هذا إلماحاً إلى درجات المسؤولية التي تتعلق بكل مسلم عموماً وأصحاب الدعوة خصوصاً .

فأدنى درجة في المسؤولية هي مسؤولية الشخص عن نفسه . ومن أجل إعطاء هذه الدرجة حقها استمرت فترة ابتداء الوحي تلك المدة الطويلة التي رأيناها ، أي ريثما يطمئن محمد ﷺ إلى أنه نبي مرسل ، وأن ما ينزل عليه إنما هو وحي من الله عز وجل فيؤمن هو بنفسه أولاً ويوطن ذاته لقبول كل ماسيتلقاه من مبادئ ونظم وأحكام .

أما الدرجة التي تليها ، فهي مسؤولية المسلم عن أهله ومن يلوذون به من ذوي قرباه . وتوجيهاً إلى القيام بحق هذه المسؤولية خصص الله الأهل والأقارب بضرورة الإنذار والتبليغ بعد أن أمر بعموم التبليغ والجهر به . وهذه الدرجة من المسؤولية يشترك في ضرورة تحمل أعبائها كل مسلم صاحب أسرة أو قربى . وليس من اختلاف بين دعوة الرسول في قومه ودعوة المسلم في أسرته بين أقاربه ، إلا أن الأول يدعو إلى شرع جديد منزل عليه من

الله تعالى ، وهذا يدعو بدعوة الرسول الذي بعث إليه ، فهو يبلغ عنه وينطق بلسانه . وكما لا يجوز للنبي أو الرسول في قومه أن يقعد عن تبليغهم ماأوحيَ إليه ، فكذلك لا يجوز لرب الأسرة أن يقعد عن تبليغ أهله وأسرته ذلك ، بل يجب أن يحملهم على اتباع ذلك حملاً ويلزمهم به إلزاماً .

أما الدرجة الثالثة : فهي مسؤولية العالم عن حيه أو بلدته ، ومسؤولية الحاكم عن دولته وقومه ، وكل منهما ينوبان في ذلك مناب رسول الله ﷺ ، إذ هما الوارثان الشرعيان له ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « العلماء ورثة الأنبياء » . ولتسمية الإمام والحاكم خليفة ، أي خليفة لرسول الله .

على أن العلم والدراية من لوازم الإمام والحاكم في المجتمع الإسلامي ، فليس من خلاف بين طبيعة المسؤولية المنوطة برسول الله ﷺ والمنوطة بالعلماء والحكام في الاتساع والشمول . إلا أن الرسول يبلغ ـ كما قلنا ـ شرعاً جديداً يوحى إليه من الله عز وجل ، أما هؤلاء فيمشون على قدمه ويهتدون بهديه ويلتزمون سنته وسيرته فيما يفعلون ويبلغون .

وإذن فقد كان ﷺ يتحمل المسؤولية تجاه نفسه ، بوصف كونه مكلفاً . وكان يتحمل المسؤولية تجاه أسرته وأهله ، بوصف كونه رب أسرة وذا آصرة قربى ، ثم كان يتحمل المسؤولية تجاه الناس كلهم ، بوصف كونه نبياً ورسولاً مرسلاً من الله عز وجل .

ويشترك مع النبي ﷺ في الأولى ، كل مكلف ، وفي الثانية كل صاحب أسرة ، وفي الثالثة العلماء والحكام .

ثالثاً ـ عاب رسول الله ﷺ على قومه أن يأسروا أنفسهم للتقاليد الموروثة عن آبائهم وأجدادهم دون تفكر منهم في مدى صلاحها أو فسادها ، ودعاهم إلى تحرير عقولهم من أسر الاتباع الأعمى وعصبية التقاليد التي لا تقوم على شيء من أساس الفكر والمنطق .

وفي هذا دليل على أن مبنى هذا الدين ـ بما فيه من عقائد وأحكام ـ إنما هو على العقل والمنطق ، وأن المتوخى في التمسك به إنما هو مصلحة العباد العاجلة والآجلة ـ ولذلك كان من أهم شروط صحة الإيمان بالله وما يتبعه من أمور اعتقادية أخرى ـ أن يقوم على أساس

من اليقين والفكر الحر ، دون أدنى تـأثر بـأي عرف أو تقليـد ، حتى قـال صـاحب جـوهرة التوحيد في أرجوزته المعروفة :

فكل من قلـــد في التـــوحيــــد إيمـــانـــه لم يخْـلُ من ترديـــد

ومن هنا تعلم أن الدين جاء حرباً على التقاليد ، والـدخول في أسرهـا . إذ هو قـائم في كل مبادئه وأحكامه على أساس العقل والمنطق السليمين ، على حين أن التقاليد قائمة على مجرد باعث الاقتداء والاتباع ، أي دون أن يكون فيـه لعنصر البحث والتفكير الحر أي تـأثير . إذ أن كلمة (التقاليد) إنما تعني ، في وضع اللغة العربية وما تواضع عليه عُرْفُ علماءِ الاجتماع : « مجموع العادات التي يرثهـا الآبـاء عن الأجـداد ، أو التي تسري ، بمجرد عـامل الاحتكاك في بيئـة من البيئـات أو بلـدة من البلـدان بشرط أن يكـون عـامـل التقليـد المجرد هـو العصب الرئيسي الذي يمتدّ في تلك العادات من أجل الحياة والبقاء » .

فجميع ماعتاده الناس من أنماط الحياة في مجتمعاتهم ، ومن مظـاهر اللهو في أفراحهم ، ومن أشكال الحـداد في مـآسيهم وأحزانهم ، ممـا حـاكتـه عوامل التـوارث القـديم أو الاقتبـاس التلقـائي عن طريق التـأثر والاحتكاك جميـع ذلـك يسمى في اصطـلاح اللغـة وعلم الاجتماع (تقاليد) .

إذا علمت هذا ، أدركت أن الإسلام لا يمكن أن ينطوي على شيء مما يسمى بالتقاليـد ، سواء ما كان منه متعلقاً بـالعقيـدة أو مختلف النظم والأحكام . إذ العقيـدة قـائمـة على أسـاس العقل والمنطق . والأحكام قائمة على أسـاس المصـالح الـدنيويـة والأخرويـة ، وهي مصـالح تـدرك بـالتفكير والتـدبّر الـذاتي وإن قصر عن إدراكهـا فهم بعض العقـول لبعض العـوارض والأسباب .

وإذا تبين لك هذا ، أدركت مدى خطورة الخطيئـة التي يقع فيهـا من يطلقون كلمـة (التقـاليـد الإسلاميـة) على مختلف مـا يتضمنـه الإسلام من العبـادات والأحكام التشريعيـة والأخلاقية .

إذ من شأن هذه التسمية الظـالمـة وترويجهـا ، أن توحي إلى الأذهـان أن قيمـة السلوك والخلق الإسلامي ليست بسبب كونها مبدأً إلهيـاً يكمن فيـه سر سعـادة البشر ـ كما هو الحق ـ

وإنما بسبب أن كلاً من النظام والخلق الإسلامي إنما هو عادات قديمة موروثة من الآباء والأجداد . ولا ريب أن النتيجة القطعية لهذا الإيحاء أن يضيق أكثر الناس ذرعاً بهذا الميراث القديم الذي يراد فرضه على المجتمع في عصر كل مافيه متطور ومتقدم وجديد .

والواقع أن إطلاق هذا الشعار على الأحكام الإسلامية ، ليس في مصدره خطيئة عفوية ، وإنما هو حلقة في سلسلة حرب الإسلام بالشعارات الباطلة والمدسوسة .

فالغرض الأول من ترويج كلمة (التقاليد الإسلامية) ، هو أن يؤتى بمعظم نظم الإسلام وأحكامه ، ويسدل فوقها شعار (التقاليد) حتى إذا مرَّ على ذلك زمن ، وارتبط معنى التقاليد بنظم الإسلام وأحكامه في أذهان الناس ، ونسوا أن هذه النظم إنما هي في حقيقتها مبادئ قائمة على أساس ما يقتضيه العقل والبحث السليم ، أصبح من السهل على أعداء الإسلام أن يحاربوه من النقطة التي تنفذ إليها حرابهم وسهامهم .

إن جميع ماأتى به الإسلام من نظم وتشريعات ، إنما هو مبادئ والمبدأ هو ما يقوم على أساس من التفكير والعقل ، ويستهدف الوصول إلى مقصد معين . وإذا كانت المبادئ البشرية قد تخطئ الصواب أحياناً لشذوذ في أفكار أصحابها ، فإن مبادئ الإسلام لا تخطئ الصواب أبداً لأن الذي شرعها هو خالق العقول والأفكار . وفي هذا وحده دليل عقلي كاف للاقتناع بهذه المبادئ واليقين بوجاهتها وصوابها .

إذ لا ريب أن المسلمين إذا استفاقوا ليجدوا معظم مبادئ الإسلام وأحكامه ، كشؤون الزواج والطلاق ، وحجاب المرأة وصيانتها ، وعامة قضايا السلوك والأخلاق ، قد أسبل من فوقه رداء (التقاليد) ، فإن من الطبيعي أن يجدوا بعد ذلك من يدعو إلى نبذ التقاليد والخروج عن أسرها وكسر قيودها ، خصوصاً في هذا العصر الذي أصبحت السيادة فيه لحرية الرأي والتفكير .

ولكن الحقيقة أن الإسلام لا تقاليد فيه .

إنه الدين الذي جاء لتخليص العقل من براثن التقاليد ، كما رأينا في أولى خطوات الدعوة التي قام بها رسول الله ﷺ .

لو كان الحلم الذي يراود المسلمين في معركة القادسيـة ، وصولاً إلى ثروة وتقلبـاً في نعيم وتحقيقاً للذائـذ العيش ، إذن لمـا دخل ربعي بن عـامر رضي الله عنـه سرادق رستم مزدريـاً مظاهر الترف التي غمس فيها السرادق غمساً يتوكأ بزج رمحه على البسط والنمارق الفاخرة حتى أفسدها ، ولما قال لرستم : « إن دخلتم الإسلام تركنـاكم وأرضكم وأموالكم » ! .. أهكـذا يقول من جاء ليستلب الملك والأرض والمال ؟

لقـد أكرمهم الله بمقـدرات الـدنيـا كلهـا ، لأنهم لم يكـونـوا يفكرون فيهـا ، وإنمـا كان تفكيرهم منصرفاً إلى تحقيق مرضاة الله .

ولو كانوا يهدفون من جهادهم إلى هذه المقدرات لما وصلوا إلى شيء منها .

المسألة بما فيها ليست إلا تحقيقاً للقانون الإلهي الذي يقول :

﴿ ونُريـــدُ أنْ نَمُنَّ على الـــذينَ اسْتُضعِفـوا في الأرضِ ونَجْعَلَهُمْ أئِمّـــةً ، وَنَجْعلهُمْ الوارثين ﴾ [القصص ٥/٢٨] .

وإن تفهم هذا القانون لأيسر ما يكون على العقل أي عقل كان ، بشرط واحد ، هو أن يكون صاحبه حراً عن العبودية لأي رغبة أو غرض .

أول هجرة في الإسلام

ثم إن رسول الله ﷺ لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء وأنه لا يقدر على أن يحميهم ويمنعهم مما هم فيه ، قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكاً لا يظلم عنـده أحـد ، وهي أرض صـدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنـة وفراراً إلى الله بـدينهم ، فكانت أول هجرة في الإسـلام . وكان في مقـدمـة المهـاجرين :

عثمان بن عفـان وزوجتـه ، رقيـة بنت رسـول الله ﷺ ، وأبـو حـذيفـة وزوجتـه ، والـزبير بن العـوام ، ومصعب بن عمير وعبـد الرحمن بن عوف ... حتى اجتمع في أرض الحبشـة من أصحـابـه ﷺ بضعـة وثمـانـون رجلاً[11] .

فلما رأت قريش ذلك ، أرسلت إلى النجـاشي عبـد الله بن أبي ربيعـة وعمرو بن العاص (ولم يكن قد أسلم بعد) بهدايا مختلفة كثيرة ، إليه وإلى حـاشيتـه وبطـارقتـه ، رجـاء أن يرفض قبول هـؤلاء المسلمين في جـواره ويسلمهم مرة أخرى إلى أعدائهم .

فلما كلّما النجاشي في ذلك ـ وكانا قـد كلّما من قبلـه بطـارقتـه وقـدّمـا إليهم ماجاءا بـه من الهـدايـا ـ رفض النجـاشي أن يسلم أحـداً من المسلمين إليهما حتى يكلمهم في شأن دينهم الجديـد هـذا . فجيء بهم إليـه ، ورسولا قريش عنده ، فقال لهم : « ماهذا الدين الـذي قـد فـارقتم فيـه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من الملل ؟ » .

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طـالب ، فقـال : « أيهـا الملـك : كنـا قوماً أهل جـاهليـة ، نعبـد الأصنـام ، ونـأكل الميتـة ، ونـأتي الفواحش ، ونقطع الأرحـام ، ونسيء الجوار ويـأكل القوي منـا الضعيف ، فكنـا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفـافـه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآبـاؤنـا من دونـه من الحجـارة والأوثـان ، وأمرنـا بصـدق الحـديث وأداء الأمـانـة وصلـة

(١١) هذا هو الصحيح كما ذكره ابن هشام في سيرته : ٣٣٠/١ وانظر فتح الباري : ١٣٠/٧

الرحم ، ونهانا عن الفواحش .. فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان .. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك » .

فسأله النجاشي أن يتلو عليه شيئاً مما جاءهم به الرسول ﷺ من عند الله .

فقرأ عليه جعفر صدراً من سورة مريم ، فبكى النجاشي حتى اخضلّت لحيته ، ثم قال لهم : « إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . ثم التفت إلى رسولي قريش قائلاً : انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ، ولا يُكادون » .

ثم إنها عادا فقالا للنجاشي : « أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون » . فأرسل إليهم ، في ذلك ، فقال جعفر بن أبي طالب : « نقول فيه الذي جاءنا به نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، يقول : « هو عبد الله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول » .

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : « والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود » .

ثم ردَّ إليهما هداياهما ، وزاد استمساكه بالمسلمين الذين استجاروا به ، وعاد الرسل إلى قريش خائبين .

وبعد فترة من الزمن بلغهم إسلام أهل مكـة ، فرجعوا لمـا بلغهم ذلـك حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما قد سمعوه من إسلام أهل مكـة بـاطل ، فلم يدخل أحـد منهم إلا بجوار ، أو مستخفيـاً وكان جميعهم ثلاثـة وثلاثين رجلاً . وكان من بين من دخل بجوار ، عثمان بن مظعـون ، دخـل بجـوار الوليد بن المغيرة ، وأبو سلمة دخل بجوار أبي طالب .

العبر والعظات :

نأخذ من حديث هجرة المسلمين إلى الحبشة ثلاث دلالات :

الدلالة الأولى : إن الدين والاستمساك به وإقامة دعـائمـه ، أسـاسٌ ومصـدرٌ لكل قوة ، وهو السيـاج لحفـظ كل حق من مـال وأرض وحريـة وكرامـة ، ومن أجل هـذا كان واجب الدعاة إلى الإسلام والمجاهدين في سبيله أن يجندوا كل إمكاناتهم لحماية الـدين ومبـادئـه ، وأن يجعلوا من الوطن والأرض والمال والحياة وسائل لحفـظ العقيـدة وترسيخهـا ، حتى إذا اقتضى الأمر بذل ذلك كله في سبيلها ، وجب بذله .

ذلك أن الدين إذا فُقد أو غلب عليـه ، لم يغن من ورائـه الوطن والمـال والأرض ، بل سرعان ما يذهب كل ذلـك أيضـاً من ورائـه ، أمـا إذا قوي شـأنـه وقـامت في المجتمع دعـائمـه ورسخت في الأفئدة عقيدتـه ، فـإن كل مـا كان قـد ذهب في سبيلـه من مـال وأرض ووطن يعود .. يعود أقوى من ذي قبل حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة ..

ولقد جرت سُنّة الله في الكون على مرّ التاريخ أن تكون القوى المعنوية هي الحـافظـة للمكاسب والقـوى المـاديـة . فمهما كانت الأمـة غنيـة في خلقهـا وعقيـدتهـا السليمـة ومبـادئهـا الاجتماعية الصحيحة ، فإن سلطانها المادي يغدو أكثر تماسكاً وأرسخ بقاء وأمنع جانبـاً . ومهما كانت فقيرة في خلقها مضطربة في عقيدتها تائهة أو جانحة في نظمها ومبادئهـا فـإن سلطـانهـا المادي يغدو أقرب إلى الاضمحلال ومكتسباتها المادية أسرع إلى الزوال .

وقد تصادف أن تجد أمة تـائهـة في عقيـدتهـا عن جـادة الصواب منحطـة في مستواهـا الخلقي والاجتماعي ، وهي مع ذلك واقفة على قـدميهـا من حيث القوة والسلطـان المـادي ،

ولكنها في الحقيقة والواقع تمر بسرعة نحو هاوية سحيقة . والسبب في أنك لا تحس بحركة هذا المرور وسرعته هو قصر عمر الإنسان أمام طول عمر التاريخ والأحقاب . ومثل هذه الحركة إنما تبصرها عين التاريخ الساهرة لا عين الإنسان الغافل الساهي .

وقد تصادف أن تجد أمة تعرَّت عن كل مقوماتها المادية من ثروة ووطن ومال في سبيل الحفاظ على العقيدة الصحيحة وفي سبيل بناء النظام الاجتماعي السليم ، ولكن ما هي إلا فترة قصيرة حتى تجد أرباب هذه العقيدة الصحيحة وما يتبعها من الخلق والنظام الاجتماعي السليمين قد استحوذوا على وطنهم المسلوب ومالهم المغصوب وعادت إليهم قوتهم مضاعفة معززة .

وأنت لن تجد الصورة الصحيحة عن الكون والإنسان والحياة إلا في عقيدة الإسلام الذي هو دين الله لعباده في الأرض ولن تجد من نظام اجتماعي عادل سليم إلا في نظام الإسلام وهديه . ولذا فقد كان من أسس الدعوة إلى الإسلام التضحية بالمال والوطن والحياة في سبيله ، فبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم المال والوطن والحياة .

ومن أجل هذا شرع مبدأ الهجرة في الإسلام . فأشار الرسول ﷺ على أصحابه - بعد أن نالهم من أذى المشركين ما خشي عليهم معه الفتنة في الدين - بالهجرة والخروج من الوطن .

وأنت خبير أن هذه الهجرة نفسها ضرب غير يسير من ضروب العذاب والألم في سبيل الدين ، فهي ليست في الحقيقة هرباً من الأذى والراحة ، بل هي تبديل للمحنة ريثما يأتي الفرج والنصر .

وأنت خبير أيضاً أن مكة لم تكن إذ ذاك دار إسلام حتى يقال : فكيف ترك أولئك الصحابة دار الإسلام وفروا ابتغاء سلامة أرواحهم إلى بلاد كافرة ؟ فمكة والحبشة وغيرهما كانت سواءً إذ ذاك ، وأيها كانت أعون للصَحابي على ممارسة دينه والدعوة إليه ، فهي أجدر بالإقامة فيها .

أما الهجرة من دار الإسلام فحكمها بين الوجوب والجواز والحرمة ، أما الوجوب فيكون عند عدم تمكن المسلم من القيام بالشعائر الإسلامية فيها كالصلاة والصيام والأذان والحج ..

وأما الجواز فيكون عندما يصيبه فيها بلاء يضيق به ، فيجوز له أن يخرج منها إلى دار إسلامية أخرى . وأما الحرمة فتكون عندما تستلزم هجرته إهمال واجب من الواجبات الإسلامية لا يقوم به غيره[١٢] .

الدلالة الثانية : ونأخذ منها حقيقة العلاقة القائمة بين ماجاء به سيدنا محمد وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام ، فقد كان النجاشي على دين عيسى عليه الصلاة والسلام ، وكان مخلصاً وصادقاً في نصرانيته . ولقد كان من مقتضى إخلاصه هذا أن لا يتحول عنها إلى ما يخالفها وأن لا ينتصر لمن تختلف عقيدتهم عما جاء به الإنجيل وما جاء به سيدنا عيسى عليه السلام .

أي فلو صحت تقولات أولئك الذين يزعمون انتماءهم إلى عيسى بن مريم وتمسكهم بالإنجيل ، من أن عيسى ابن الله تعالى وأنه ثالث ثلاثة ، لتمسك النجاشي ـ الذي كان من أخلص الناس لنصرانيته ـ بذلك ، ولردّ على المسلمين كلامهم وانتصر لرسل قريش فيما جاؤوا من أجله .

ولكنا رأينا النجاشي يعلق على ماسمعه من القرآن وترجمته لحياة عيسى بن مريم بقوله : « إن هذا والذي جاء به عيسى بن مريم ليخرج من مشكاة واحدة » . يقول ذلك على مسمع من بطارقة وعلماء الكتاب الذين من حوله .

وهذا يؤكد ماهو بديهي الثبوت من أن الأنبياء كلهم إنما جاؤوا بعقيدة واحدة لم يختلفوا حولها بعضهم عن بعضهم قيد شعرة ، ويؤكد لنا أن اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم ليس إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً من عند أنفسهم كما قال الله تعالى .

الدلالة الثالثة : أنه يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، سواء أكان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي إذ كان نصرانياً عندئذ ، ولكنه أسلم بعد ذلك[١٣] ، أم كان مشركاً كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم عندما رجعوا

---

(١٢) انظر تفسير القرطبي ٣٥/٥ وأحكام القرآن لابن العربي ٨٨٧/٢

(١٣) كان النجاشي ممن آمن برسول الله ﷺ ، ولما مات نعاه رسول الله ﷺ للصحابة ثم خرج بهم إلى المصلى فصلى عليه . رواه مسلم .

ولما وقف دعاة السوء على هذا الكتاب ووجدوا فيه من الأكاذيب المنسوبة إلى رسول الله ﷺ ما يكفل زعزعة إيمان الكثيرين من الناس ، راحوا يروجون له ويدعون إليه (وكان في جملة من كتب عنه مادحاً ومعظماً الدكتور لويس عوض ، وما أدراك من هو لويس عوض) ، مع أنهم يعلمون قبل سائر الناس أنه كتاب مكذوب على ابن عباس وأن أحاديثه باطلة ، ولكن الكذب سرعان ما ينقلب عندهم صحيحاً إذا كان فيه ما يشوش أفكار المسلمين ويلبس عليهم دينهم .

عرض الرسول نفسه على القبائل وبدء إسلام الأنصار

كان النّبي ﷺ ، خلال هذه الفترة كلها ، يعرض نفسه في موسم الحج من كل سنة على القبائل التي تتوافد إلى البيت الحرام ، يتلو عليهم كتاب الله ويدعوهم إلى توحيد الله فلا يستجيب له أحد .

يقول ابن سعد في طبقاته : « كان رسول الله ﷺ يوافي الموسم كل عام يتّبع الحجاج في منازلهم في المواسم بعكاظ ومجنة وذي المجاز ، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربّه ولهم الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره ، ويقول : « ياأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذلّ لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة » ، وأبو لهب وراءه يقول : « لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب » ، فيردون على رسول الله أقبح الرّد ويؤذونه »[٣٠] .

---

(٣٠) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢٠٠/١ و ٢٠١ ، وروى ابن إسحاق نحوه ، انظر سيرة ابن هشام : ٤٢٣/١

وروى ابن إسحـاق عن الـزهري : « أنّ النّبي ﷺ أتى بني عـامر بن صعصعة ، فـدعـاهم إلى الله عزّ وجلّ ، وعرض عليهم نفسـه ، فقـال رجل منهم يقـال لـه بيحرة بن فراس :والله لوأني أخـذت هـذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال : أرأيت إن نحن بايعنـاك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعـدك ؟ قـال الأمر إلى الله ، يضعه حيث يشاء ، قال ، فقال له : أفنهدف نحورنـا للعرب دونـك ، فـإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لاحاجة لنا بأمرك »[٣١] .

وفي السنة الحادية عشرة من البعثة عرض نفسه على القبائل شـأنـه كل عـام ، فبينمـا هو عنـد العقبـة (مـوضـع بين منى ومكـة منهـا ترمى جمرة العقبـة) لقي رهطـاً[٣٢] من الخـزرج أراد الله بهم الخير ، فسـألهم : « من أنتم ؟ » .

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : أمن موالي يهود ؟

قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قـالوا : بلى . فجلسـوا معـه فـدعـاهم إلى الله عـزّ وجـلّ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

---

(٣١) سيرة ابن هشام : ٤٢٥/١ ، وتاريخ الطبري : ٣٥٠/٢

(٣٢) كانوا ستة وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحـارث ، ورافع بن مـالـك ، وقطبـة بن عـامر ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله .

وكان مما مهّد أفئدتهم لقبول الإسلام ، أن اليهود كانوا معهم في بلادهم ، ومعلوم أنهم أهل كتاب وعلم ، فكان إذا وقع بينهم وبين اليهود نفرة أو قتال ، قال لهم اليهود : إن نبيّاً مبعوث الآن قد أطلّ زمانه ، سنتّبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم !.

فلما كلّم الرسول هؤلاء النفر ، ودعاهم إلى الإسلام ، نظر بعضهم لبعض وقالوا :

« تعلمون والله إنه للنّبي الذي توعّدكم به يهود ، فلا يسبقنّكم إليه » .

فأجابوه إلى مادعاهم إليه من الإسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك . ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك .

ثم انصرفوا ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل »[٣٣] .

بيعة العقبة الأولى

وانتشر الإسلام خلال تلك السّنة في المدينة ، ولما كان العام الذي يليه ، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلقوه بالعقبة ، وهي العقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء (أي على نمطها في البنود التي بايع النساء عليها ، أي إنه لم يبايعهم فيها على الحرب والجهاد ،

---

(٣٣) رواه ابن إسحاق عن عاصم بن عمر عن أشياخ من قومه ، وانظر سيرة ابن هشام : ٤٢٨/١

وكانت بيعة النساء ثاني يوم الفتح على جبل الصفا بعدما فرغ من بيعة الرجال) وكان منهم : أسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم ابن التيهان .

وقد روى عبادة بن الصامت خبر هذه المبايعة ، فقال : كنا اثني عشر رجلاً ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « تعالوا بايعوني على أن لاتشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه » . قال عبادة بن الصامت : « فبايعناه على ذلك »[٣٤] .

فلما أرادوا الانصراف بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين ، فكان يسمى مقرئ المدينة .

العبر والعظات :

أرأيت كيف بدأ التحول في طبيعة ماكان يلاقيه النّبي ﷺ طوال هذه السنوات التي خلت من عمر بعثته ﷺ ؟

---

(٣٤) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب وفود الأنصار وبيعة العقبة . ومسلم في كتاب الحدود . وفي اشتراك عبادة في هذه البيعة كلام طويل ، انظر تحقيق ذلك في فتح الباري عند شرح هذا الحديث .